أصوات العلة عند القدامى بين الصوت والرمز (مقاربة وصفية تحليلية)

Vowel Sounds to the Early Scholars Between the Sound and the Sign (Descriptive and Analytical Approach)

الطالب:يحيى قريشي /د مسعود غريب

البريد الإلكتروني: ghmessaoud@gmail.com

قسم اللغة والأدب العربي كلية الآداب واللغات

جامعة قاصدي مرباح ورقلة الجزائر

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2020/01/29	2020/02/06	2020/06/01

الملخص:

إذا كانت اللغة هي الوسيلة الرئيسة للاتصال والتواصل، فإن الصوت مادتها الخام بما في ذلك الأصوات الصامتة، وأصوات العلة، ولذا فتوصيف وتحليل ما أنجزه القدامى في هذا المجال من أعمال جبارة، هو أمر لاشك سوف يمكّننا من وضع تلك الجهود العظيمة في الصورة التي تليق بها؛لهذا وذاك جاء بحثنا موسوما بـ: أصوات العلة عند القدامى بين الصوت والرمز (مقاربة وصفية تحليلية).

وقد تتبعنا في معالجة هذه المقاربة الخطة الآتية:

- مبحث1: مفهوم الحركة عند القدامى.
- مبحث2: أصوات العلة بين الصوامت والحركات
- مبحث3: من آثار مفهوم الحركة ومفهوم أصوات العلة.

وختم البحث بأهم النتائج المستخلصة من هذه المقاربة الوصفية التحليلية تضمنتها خاتمته

الكلمات المفتاحية: الصوت، العلة، الرمز، الحركات، الصوامت.

Abstract

If the language is the principal means to communicate and contact, the sound is its essence, including consonant sounds, and vowel sounds. Therefore, Describing and analyzing the tremendous work done by the early scholars in this field is something that will ,with no doubt, enable us to put those great efforts in the proper place. Thus, our research entitled: Vowel Sounds to the Early Scholars Between the Sound and the Sign (Descriptive and Analytical Approach).

In dealing with this approach, we have followed the following plan:

- Topic 1: The concept of vowel to the early scholars.
- Topic 2: Vowel sounds between consonants and vowels.
- Topic 3: From the effects of the concept of vowel and the concept of vowel sounds.

The research concluded with the most important results drawn from this descriptive and analytical approach included in its conclusion.

Key words: sound, sign, vowels, consonants.

مفهوم الحركة عند القدامى:

إن المتأمل في مضامين الدرس اللغوي القديم يرى أنه قد انطلق في معالجة تغيرات الألفاظ المعتلة من الصورة الخطية للغة، لا من السلسلة الصوتية الأمر الذي أدّى إلى تداخل" ما هو من اهتمامات علم الرسم(الإملاء) فيما هو من ظواهر النطق وخصائص التصريف.وكان السبب في هذا الخلط الاعتقاد بأن اللغة هي ما تحتويه رموز الكتابة من حروف وكلمات وتراكيب، ربما لأنهم كانوا يهتمون أساسا بما تلقّوه من نصوص الماضي، لا بما كانوا ينطقون فعلا"[1]، فالملاحظ على هذه الأحكام أنها تقوم على المقارنة بين نتائج الدراسة القديمة، وما توصّل إليه الدرس الحديث، إذ الدراسات الحديثة تنطلق من المستعمل المنطوق بينما القديمة تنطلق من المدوّن المرسوم، الأمر الذي ذهب بالبعض إلى اعتقاد أن النحاة العرب القدامى تصوروا أنّ "الحركات تنتقل فوق الحروف فتعوّض الواحدة الأخرى بكل بساطة وكأنما هي أثواب يستبدلها الحرف كما يشاء"[2]، لكن الصواب في تشخيص بعض المؤاخذات على الدرس اللغوي القديم يكون بالبحث عن الأسباب التي أدّت إلى النتائج المختلف فيها بين الدرسين، ولعل من أهم ما يتصل بذلك تحديد المقصود من الحركة عند القدامى.

نقل سيبويه عن الخليل:"أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به. والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه. فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء،والضمة من الواو. فكل واحدة شيء مما ذكرت لك"[3]، وربّ متعجّل على الأوّلين يتلقّف كلمة(زوائد) متألّيا على الخليل أنه قال ذلك؛ لأن الحركات لم تكن مكتوبة في الرسم، أو أنّها لدى اختراع رمزها وضع فوق الحرف، وما أبعد هذا عن الصواب؛ لأن مراد الخليل من(زوائد) "أن الحركات تجري مجرى الحروف الزوائد التي تزاد على ما كان أصليا، فالحركات يزدن على الحروف والأصل الحروف"[4]، والمراد بالأصل أصول المادة اللغوية و" الدليل على أن هذه الحركات ليست من أصول أنفس الكلم أنك تشتق من المصدر أبنية مختلفة فتسقط الحركات التي كانت في المصدر كما لا تسقط الحروف التي هي غير الحركات،ألا ترى أن ما كان أصلا في (الضرب)لا يسقط في(ضارب) ولا في سائر ما يشتق منه، فلو كانت الحركات أصولا لم تسقط، كما لم تسقط أنفس الحروف ولم تتغير"[5]، فالحركات عدت زوائد لعدم ثباتها ثبات الأصول عند الاشتقاق من المادة الواحدة، هذا ما أشار إليه عبد الصبور شاهين بدعوته ـ بالنظر لخاصيّة الاشتقاق في العربية ـ لاعتبار "هذه المادة من الصوامت هي أصل الاشتقاق وهي التي يشتق منها المصدر والفعل بأنواعه، وسائر المشتقات...والمادة هي أبسط صورة توجد فيها(خامة) الكلمة، وهي تحتوي بالقوّة على جميع الصور الاشتقاقية"[6]، فالخليل يعد الحركة زائدة انطلاقا من النظام الصوتي لتشكيل الكلمات واشتقاقها.

أما ما تصوّره الخليل من وظيفة الحركات كوسيلة للتكلم بالصوامت فذلك بالنظر للأداء الصوتي لبنية العربية لا بالنظر إلى كلمة محدّدة؛ وإلا فإنهم قد عدّوا الحركات ركنا في تشكيل أوزان الكلمات، ولعل هذا التصور ـ لوظيفة الحركة في التكلم بالحرف ـ نشأ عن قوانين نظام المقاطع الصوتية للعربية والتي لا تبدأ بصامت مما أوهم القدامى أن الحركات التي تلي الصوامت تبع لها للنطق بها، ومما يدعم هذا التعليل الصوتي لا الخطي قول ابن جني:"وقول النحويين إن الحركة تحل الحرف مجاز لا حقيقة تحته، وذلك أن الحرف عرض، والحركة عرض أيضا، وقد قامت الدلالة عن

طريق صحة النظر على أن الأعراض لا تحل الأعراض، ولكنه لما كان الحرف أقوى من الحركة، وكان الحرف قد يوجد ولا حركة معه،وكانت الحركة لا توجد إلا عند وجود الحرف، صارت كأنها قد حلته، وصار هو كأنه قد تضمنها تجوزا لا حقيقة"[7]، ثم إننا إذا نظرنا إلى الخط العربي في سياق الحركات وحروف المد وجدناه أنه هو المتأثر لا المؤثر فالحركات اصطلح على أنواعها بالفتحة والكسرة والضمة باعتبار وضع الشفتين في نطق الحركة، وأول من أشار إلى ذلك أبو الأسود الدؤلي في نقطه للمصحف نقط الإعراب، حيث ربط بين موضع نقطة الحركة في الرسم وهيئة الشفتين، فقال:" فإذا فتحت شفتيّ فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله..."[8]، وأصوات المد في الطرف من اللفظ المعتل رسمت باعتبار ما انقلبت عنه ألفا إذا انقلبت عن واوا (تلا، علا، دنا)، وياء إذا انقلبت عن ياء (سعى، رمى، شفى).

ويستنسخ مما سبق أن الحركة عند القدامى هي:الصوت المهجور الذي يلحق الصامت ليوصل إلى التكلم به، ويقدر زمنها بالكم الكافي للتكلّم بالصامت" ولا يبلغ الناطق بها مدى الحروف التي هي أبعاضها فإن بلغ بها مداها، تكمّلت له الحركات حروفا، أعني ألفا وياء وواوا"[9] أي: زاد كمّها عن حجم الحركة فصارت حرف مد ساكن بعد الحركة، ولكنه ذو خصائص تميزه عن الصوامت على ما سيأتي بيانه واكتفي في تحديد مخرج الحركات وطبيعة صوتها المجهور بالإحالة على مخارج حروف المد؛ كون الحركات أبعاضا لها، وهذه الإحالة لعلها تنفي عن القدامى أن يكون"من أسباب اهتمامهم بالحرف ... وجود رموز لها مستقلة، دون الحركات القصيرة التي ليس لها مثل هذه الرموز"[10]،ولكن القدامى اكتفوا في تحديد مخارج الحركات القصيرة بتحديد مخارج الحركات الطويلة المجانسة لها، حتى قال ابن جني" وإنما سميت هذه الأصوات الناقصة حركات، لأنها تُقلق الحرف الذي تقترن به، وتجتذبه نحو الحروف التي هي أبعاضها، فالفتحة تجتذب الحرف نحو الألف والكسرة تجتذبه نحو الياء، والضمة تجتذبه نحو الواو"[11]. فبلغ من وضوح مخرج الحركات القصيرة عندهم تعليل اسم الحركة به.

وعلى ما سبق بيانه يكون تصور الحركات في الدرس العربي القديم يختلف عن التصور الحديث في الاعتبار الذي حدّت على أساسه الحركات؛ القديم: وظيفة الوصول للتكلم بالصامت(وهذا باعتبار اللغة العربية) الحديث:الصوت الذي يجري مهجورا حرا طليقا في حجرات الجهاز النطقي(وهذا باعتبار اللغات الإنسانية، ويبدأ المقطع الصوتي لبعضها بالحركات).

أصوات العلة بين الصوامت والحركات:

بعد ما انتُهى إليه في العنصر السابق من كون الحركة عند القدامى حددت من منطلق الوظيفة الصوتية في نظام تشكيل البنية اللغوية، وأن الحركة على ذلك:الصوت المهجور الذي يلحق الصامت ليوصل إلى التكلم به، ويقدر زمنها باعتبار وظيفتها بما يكفي لنطق الصامت، وما زاد عن ذلك وإن طابق الحركة في الصوت لا يكون حركة بل حرفا بعد الحركة، ويؤكد هذا التقدير لزمن الحركة ما سقناه عن ابن سينا"أن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف إلى حرف"[12]، وهذا التحديد الزمني للحركة انعكس على معالجة الدرس القديم لأصوات المد وصوتي اللين في المستويين الصرفي والنحوي" فقد جاء علاجا مضطربا، لا يكشف كشفا دقيقا عن طبيعتها، ويخلط خلطا واضحا بين قيمتها ودورها في البناء اللغوي .إنهم أولا خلطوا بين الرمز الكتابي والصوت، وركزوا ثانيا على ما يصيبهما من تغير في مواقع مختلفة من الكلمة... نعم، إنهم في مجملهم أشاروا إلى أنهما حرف مد في نحو:أدعو وأرمي...ولكنهم لم يعرضوا عرضا مناسبا لمدلوليهما الآخر، وهو كونهما من الأصوات الصامتة،"[13].ومن أدلة تأثرهم بالخط "تسميتهم الألف والواو والياء المديات حروفا ،لأنها تكتب برموز مستقلة"[14]،هذا رأي بعض المحدثين؛ يرون أن التدخل بين أصوات المد وصوتي اللين في الدرس العربي القديم من أثر الرمز المشترك بينهما في نظام الكتابة، والمتأمل لجهد القدامى في معالجة أصوات العلة لا يقتنع بهذا الرأي؛أما تسمية القدامى أصوات المد حروفا؛ فلأنها لا تدخل ضمن تصورهم لزمن الحركة، لا لكونها استقلت برمز، فضلا على أنهم لم ينطلقوا في تمييز الحركة عن الحرف من طبيعة الصوت، وإنما من الوظيفة

الصوتية في نظام تشكيل البنية اللغوية، وأكد حرفية أصوات المد عندهم اختصار الحركات الطويلة أو حذف حروف المد بتعبير القدامى إذا كانت من أجوف مجزوم نحو: لم يقل، أو طرفا ووليها ساكن نحو:(رأى البدر) ولا يُعترض على ذلك بالنظام المقطعي الرافض لإتباع صوت المد بساكن مظهر وصلا؛ لكون القدامى لم يكن عندهم من عُدة الأجهزة الحديثة ما يسعفهم لإدراك النظام المقطعي،الحاصل عندهم أن حروف المد لا تجتمع مع الساكن، وهذا من خصائص الصوامت لا الحركات، ومما أكد حرفية أصوات المد أيضا تحول حرف اللين بعد الحركة حرف مد والعكس[15]؛ للوقف أو ضرورة الشعر؛ مما جعل حرف المد بعد الحركة يقبل الحركة في تصورهم، من ذلك ما جاء في معرض تعليق السيرافي على القول ببعضية الكسرة والضمة للمدّيتين الياء والواو؛ بان ذللك يقتضي كون الياء المدية المنتقص منها مقدار الكسرة قبلها(ولذا اعتبرها غير تامة)؛غير قابلة لدخول الحركات بعد ما أُنتقص منها؛ ولكنها دخلت عليها إذ يقول السيرافي:"ويلزم أيضا أن يكون ما بعد الكسرة إن لم يكن حرفا تاما ألا تدخل عليه الحركات لأن الحركات لا تدخل على بعض حرف، ونحن نجد ضدّ هذه الحال ؛لأن الكسرة قد يجوز أن تدخل على ما قبلها كسرة ولا تستحيل ،كقول الشاعر:

لا بـارك الله في الغـوانِي هل يصبحن إلا لهن مطالب

وكذلك الضمة لو اضطر شاعر فقال قاضيُ في الشعر جاز، وأما الفتحة فكثير شائع، كقولك: رأيت القاضيَ"[16]، فاعتبار أصوات المدّ حروفا نشأ عن كونها تزيد عن زمن الحركة عندهم، وأكدّ الفصل بين أصوات المد والحركة قبلها اختصار أصوات المد للساكن بعدها، وتحرّكها بالحركات في تصورهم المساوي بين صوتي الياء والواو لينيتين ومدّيتين.

ولم تكن مساواة القدامى بين صوتي الياء والواو مدّيتين ولينيتين من أثر رمزهما الموحّد في نظام الكتابة؛ لأنهم درسوا مخارج الأصوات وذاقوها في جهاز النطق بعيدا عن الخط، كما سبق بيانه في المبحث الأول، ومن تأمل صوت الواوين والياءين منفصلا عما قبله في مثل(حوض،حوت)،(ديْن ،دير)، لم يجد اختلافا

واضحا في الصوت، ولكن في الزمن، يقول تمام حسان:" ليس هناك فرق أصواتي بين الضمة الطويلة، والواو الساكنة المطالة، انطق أيهما شئت، واسال جارك أن يخمن أيهما تعني، وستعلم أن أذنه لم تخبره الخبر اليقين"[17]،ومن حاولوا التمييز بينهما- بالاستعانة بالوسائل المخبرية الحديثة -"أدركوا أن مجرى الهواء- وإن ضاق عند نطقهما في هذه الحالة_لم يصل إلى درجة الضيق التي نلاحظها عند نطق الأصوات الصامتة. ومن ثم رأوا في النهاية تسميتها أنصاف حركات "[18]وقد أشير سابقا إلى أن درس التجويد ميز بينهما في المخرج وأحكام المد ،مع اعتبار ذلك تنوّعا ألوفونيا لصوت احد في مباحث النحو والصرف.

ومما يدل على أن مماثلة القدامى بين الواو والياء لينتين ومدّيتين مردها للصوت لا للخط ، تفريقهم بين الهمزة والألف المدية بعد أن تلقوهما ممن سبقهم متفقين اسما ورسما؛ فالهمزة والألف" وإن كانا متغايرين في حدّ ذاتهما على الصحيح إلا أن الألف لفظ مشترك يطلق على الألف المدية كألف قال ويطلق على الهمزة وهي المرادة بالألف الذي هو أول حروف الهجاء، وأما الألف المدية فهي المرادة بلام ألف فهو اسم لها كسائر أسماء حروف الهجاء إلا أنه اسم مركب لأجل أن الألف لا يمكن النطق بها إلا مقرونة بغيرها، فجعل اسمهما كذلك مقرونا بغيره"[19]،هذا تمييز الاسم، وأما تمييز الرمز فقد" ابتكر الخليل بن أحمد علامة مميزة للهمزة هي عبارة عن رأس عين صغيرة (ء)"[20]، وفي هذا تأكيد أن منطلق الدرس العربي القديم نطقي صوتي لا رمزي خطي، وأنهم أجروا الرمز على مقتضى الصوت لا الصوت على مقتضى الرمز.

من آثار مفهوم الحركة ومفهوم أصوات العلة: يمكن أن نقسم الأثر قسمين:

1-أثر مفهوم الحركة:

لقد وصف القدامى أصوات المد بأنهما حروف ساكنة بعد حركات مجانسة لها،وهي في حقيقتها صوت واحد لا حركة متبوعة بحرف ، ومما نتج عن ذلك:

أ- توهم إتباع الحركة بالحركة (تفكيك الحركة الطويلة):

وذلك باعتبارهم صوت المد- نظريا- حركة قصيرة متبوعة بحركة طويلة من جنسها، فصار الصوت الواحد صوتين متواليتين من جنس واحد، وقد يتساءل المتأمل في قول ابن جني وهو يقرر"أن الألف فتحة مشبعة، والياء كسرة مشبعة، والواو ضمة مشبعة"[21]عن السبب الذي يقتضي منه تصور أصوات المد مجزأة رغم تحققه بأنها صوت واحد ممطول، يقول في باب مطل الحركات :"وإذا فعلت العرب ذلك أنشأت عن الحركة الحرف من جنسها. فتنشئ بعد الفتحة الألف، وبعد_الكسرة الياء، وبعد الضمة الواو."[22] بل ويدعوك إلى تأمل أجزائها متتابعة "أفلا ترى إلى هذه الحروف_كيف تتبع الحركات التي قبلها وهي أبعاض لها"[23]، كل ذلك مرده للمفهوم الذي اعتبروه في تحديد الحركة من الحروف، وما جرى عليه اللغويون جرى عليه القراء، ومن ذلك تعريفهم الإمالة:"أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء..."[24]،وكان لذلك أثره في تعليل تغيرات أصوات العلة، حيث ارتكزوا على هذه الفكرة(تجزئة صوت المد) في تصور عمليات انتقال الكلمات من الصحة إلى الاعتلال، مثل الوصول إلى(مفعُل أو مفول) من مفعول اسم المفعول من الثلاثي الأجوف؛ مثل(مقول)من(مقوول)، وكذلك الوصول إلى(إفالة أو إفعلة) من المصدر إفعال للأجوف مثل(إقامة) من إقوامة. ومن أثر وهم تتابع الحركات قولهم:"إن انكسر ما قبل الألف أو انضم قلبت للكسرة ياء، وللضمة واوا، وذلك الياء في قراطيس إنما هي بدل من ألف قرطاس، والواو في ضويرب إنما هي بدل من الألف في ضارب"[25]، وكل العمليات التعليلية السابقة تقدير نظريّ لا يمكن نطقه؛ لأنه بني على ما لا يمكن نطقه؛ وهو تجزئة الحركة الطويلة(صوت المدّ)، ثم تتابع ما لا يمكن تتابعه من الحركات.

وقد عاب بعض المحدثين هذه الصور غير المنطوقة في الانتقال من الصحة إلى الاعتلال وأطلق - على أساس هذه الصور- حكما عاما على جهد القدامى في التعليل؛ بأنه انطلق من صورة الرسم لا من تتابع الأصوات[26]، وهو حكم لا يثبت ولا يقوم أمام نصوص السلف في التعليل، ولعل هذه الشبهة دخلت على بعض المحدثين من جهة أنهم جعلوا تعليل القدامى دراسة لتطور الكلمات من الصحة إلى الاعتلال

وهو أمر لم يقصده السلف، وإنما قصدوا بيان أن استعمال الصحيح غير ممكن على ما تقتضه قوانين الإعلال عندهم، مثل:مقوول، فلا بد من إعلال عينها بالنقل، وهذا يؤدي لصورة غير مقبولة، وهي توالي ساكنين حشوا، فضلا عن أنها غير ممكنة نطقا، مما حتم إعلالها بالحذف، وقد خصص ابن جني باب في الخصائص لمثل هذه الحالات سماه(باب فيما يحكم به القياس مما لا يسوغ به النطق)، والتي هي جزء من التعليل الصرفي للقدامى لا أكثر.

ب- السكون الخاص لأصوات العلة المدّية:

وذلك أن القدامى بتصورهم الحركات الطويلة صوامت ساكنة بعد الحركات، مع أنها تختلف عن الصوامت في طبيعة صوتها، وفي سلوكها في نظام المقاطع الصوتية؛ أعوزهم ذلك إلى تمييز صوت المدّ الساكن عن الصوامت بخصائص، وتعليل ذلك بما يقرّر أنها حركات طويلة وإن لم يصطلحوا عليها بذلك.

فمن تمييزها تسميتها بحروف المد لكونها تجرى في جهاز النطق بامتداد قابل للزيادة، بخلاف الصوامت التي تخرج بقطع مجرى الهواء أو تضييقه، ومع حدّهم الساكن بأنه: "ما أمكن تحميله الحركات الثلاث"[27]، وهو ما لا يصدق على أصوات المد؛ لكونها حركات طويلة "ومعلوم أن الحركات لا تحمل ـ لضعفها ـ الحركات"[28]، فاضطرهم ذلك لوصف الساكن بأنه على "ضربيين:ساكن يمكن تحريكه، وساكن لا يمكن تحريكه.الأول منها جميع الحروف إلا الألف الساكنة المدّة، والثاني هو هذه الألف، نحو، ألف كتاب وحساب وباع وقام "[29]،ولم يذكروا الواو والياء المدّيتين ،لالتباس صوتيهما ـ عندهم ـ بصوتي اللين.

وامتد أثر السكون الملازم لأصوات المد للنّحو، فصنعوا ـ لئلا يعوق طرد القواعد ـ قانون تقدير الحركات على المبنيات، وعلامات الإعراب على المعربات؛ وكل ذلك في الأسماء والأفعال المنتهية بحرف مد ليتأتى لهم افتراض الحركات والعلامات بعد حرف المد، واصطلحوا على ما يجري عليه الإعراب التقديري بأسماء خاصة، مثل المقصور والمنقوص، واعتذروا للتقدير بالثقل في الواو والياء المدّيتين وبالتعذر في الألف، وعللوا التعذر بالعلة المانعة ـ عند المحدثين ـ من تتابع الحركات وهي:أن

الألف"هوائية تجري مع النفس لا اعتماد لها في الفم، والحركة تمنع الحرف من الجري وتقطعه عن الاستطالة فلم يجتمعا ولهذا لو فرض تحريكها انقلبت حقيقيها وصارت همزة"[30]،ومما يوضّح خصوصية سكون حروف المد عندهم أنهم يبنون الماضي الناقص نحو(استوى)على الفتح المقدر للتعذر،ويبنون الاسم من نحو(أنا) و(هذا) على السكون، فإذا تعذر تحريك الألف، فكيف تذوقوا سكونها؟

يظهر للمتأمل أن المقصود العميق من التقدير التعذري هو تجاهل طبيعة أصوات المدّ التى تختلف عن عن الحروف الصوامت، حيث لم يجدوا لذلك مخرجا بسبب ترسّخ مفهوم قصر الحركة عندهم، مع ما يعرض لأصوات المد من اختصار وغيره مما سبق بيانه، ويؤكد هذا تفسير الشاطبي لمعنى التقدير، وذلك في جوابه الآتي لمن يقول أن توالي"أربعة متحركات قد يأتي من غير عارض يعرض وذلك في نحو جمزي وبشكى ومرطى...فإن ألف التأنيث في تقدير التحرك ألا ترى أنها محل الإعراب والإعراب مقدر في الألف، وإذا كان مقدرا فيها، والمقدر كالمنطوق به...فالجواب أن تقدير الإعراب في ألف التأنيث لا يكون بمنزلة الحرف المتحرك، وإنما الألف باقية على سكونها، ومعنى تقدير الإعراب فيها أنه لو كان في_موضعها حرف صحيح لكان متحركا، هذا هو المراد"[31]، فالتقدير في حقيقته وسيلة تجاهل طبيعة صوت المد، وحمله على الصوامت التي تتبعها الحركات، وذللك طردا لقواعد الإعراب، ولا قيمة له أكثر من ذلك لأنه لا يُعرب عن وظيفة الألفاظ معتلة الآخر في الكلام، وإنما يعرب عنها السياق وترتيبها في نظم الكلام، وما قد يلتصق بها من سوابق ولواحق.

والقاعدة العامة في التخلص من التقاء الساكنين التحريك،ولكنّ أصوات المد، ميّزت في هذا بالحذف وخصها سيبويه بباب فقال:" هذا باب ما يحذف من السواكن إذا وقع بعدها ساكن؛ وذلك ثلاثة أحرف: الألف، والياء التي قبلها حرف مكسور، والواو التي قبلها حرف مضموم؛ فأما حذف الألف فقولك: زمى الرجل... ولم يخف...وأما حذف الياء فقولك:هو يرمي الرجلَ...وأما حذف الواو فقولك: يغزو

الرجلَ... ومثل ذلك: لم يبع ولم يقل"[32]، إلا أنهم عللوا حذف الواو والياء باستثقال التحريك، وأمن اللبس.

ومن تمييز أصوات المدّ أيضا تنزيلها منزلة المتحرك في "باب الإدغام...إذا التقى الحرفان المثلان اللذان هما سواءٌ متحركين، وقبل الأول حرف مدّ، فإن الإدغام حسن؛ لأن حرف المد بمنزلة متحرك في الإدغام ألا تراهم في غير الانفصال قالوا : رادّ وتمودَّ الثوب. وذلك قولك:إن المال لَّك وهم يظلمونّي، وهما يظلمانّي، وأنت تظلمينّي.والبيان ههنا يزداد حسنا لسكون ما قبله...وإذا كان قبل الحرف المتحرك الذي بعده حرف مثله سواءٌ،حرف ساكن، لم يجز أن يسكّن...وذلك قولك:ابن نوح، واسم موسى لا تدغم هذا"[33] وقد يؤخذ من كلام ههنا أن أصوات المدّ عنده مدّية أكثر منها ساكنة،فاكتفى في التفريق بين حالةسبق أول المثلين بساكن مدّي،وحالة سبقه بساكن غير مدّي بالتعبير في الأولى:وقبل الأول حرف مجّ،وفي الثانية: قبل الحرف المتحرك...حرف ساكن.

وكل ما سبق إيراده يدل على أن السلف أدركوا خصوصية أصوات المدّ حيث وجدوا لها سلوكا خاصا يتميز عن سلوك الحركات القصيرة وعن الصوامت، فخصصوا مطلق سكونها بالمدّ واللين والعلة، وأسسوا وصف سلوكها على كونها صوتا ساكنا مغايرا للصوامت الساكنة.

2- أثر المماثلة بين الحركة الطويلة وشبه الحركة:

تختلف الواو والياء مدّيتين عنهما لينتين في طبيعة الصوت وطريقة النطق وكمّ الزمن، وليس كل الاختلاف لاحظه السلف، فماثلوا بين الحركة الطويلة وشبه الحركة، ممّا ألجأهم إلى تخصيص هذا التماثل، فلا يجري عليه ما يجري عليه ما يجري على المتماثلين من وجوب الإدغام إذا تتابعا والأول* ساكن؛ فإذا" كانت الواو قبلها ضمة والياء قبلها كسرة، فإن واحدة منهما لا تدغم إذا كان مثلها بعدها.وذلك قولك: ظلموا واقدا، "واظلمي ياسرا، ويغزو واقد، وهذا قاضي ياسر،لا تدغم[34]...وإذا قلت وأنت تأمر: اخشي يّاسرا، واخشو وّاقدا أدغمت"[35]،لأنهما ليسا بحرفي مدّ كالألف، وإنما هما بمنزلة قولك:احمد داود، واذهب بّ.فهذا لاتصل فيه إلا إلى

الإدغام، لأنك إنما ترفع لسانك من موضع هما فيه سواءٌ وليس بينهما حاجز"[36]من المدّ، فاعتبروا صفة الامتدادية حاجزا يمنع إدغام، حرف المد في مثله، وتعليل سيبويه منع الإدغام بأنهم "أرادوا أن يكون ظلموا على زنة ظلما واقدا وقضى ياسرا"[37]، ووجوب إدغام نصفي الحركة بأنهما ليسا بحرف مدّ قد يكون إقرارا ضمنيا بأن صوتي المد الواو والياء أقرب إلى الألف المدّية ـ فكلها حركات طويلة ـ منهما إلى الواو والياء نصفي الحركة لأنهما بين الحركات والصوامت.

ويوجد في نصوص السلف ما يدل على تصورهم نوعين من الياء والواو المدّيتين؛الأول:ما كان نتيجة إعلال الواو المتحركتين ـ وهما من أصول الكلمة ـ بالنقل أو التسكين مثل: يقول، القاضي" وقد كثر إسكان الياء في موضع النصب كقوله: يا دار هند عفت إلا أثافيها

وهو كثير جدا: وشبّهت الواو في ذلك بالياء كما شبهت الياء بالألف، قال الأخطل:

إذا شئت أن تلهو ببعض حديثها نزلن وأنزلن القطين المولّدا"[38]

والنوع الثاني: ما ينتج عن إشباع الحركات القصيرة كتنوّع الوفوتيّ لها كقول"الرجل إذا تذكر ولم يرد أن يقطع كلامه: قالا، فيمد قال، ويقولو، فيمد يقول، ومن العامي فيمد العام"[39]،أو من إشباع الحركات القصيرة لتوليد الصيغ " نحو ضاد ضُرب، لك أن تشبع الضمة فتقول ضورب،إلا أنّ هذه الأحرف اللائي يحدثن لإشباع الحركات لا يكنّ إلا سواكن؛لأنهما مدّات، والمدات لا يتحركن أبدا"[40]،فالنوع الأول ألصق عندهم بحرفي اللين، والثاني ألصق بالحركات، وفي هذا إشارة إلى أنهم استأنسوا في تغليب المماثلة بين المدّتين واللينين بما عدوه إعلالا بالتسكين في نحو:يدعوُــ يدعو فالواو نفسها إلا أنها في يدعو أعلت بالتسكين.ولو انجلى للسلف ما انجلى للمحدثين من الفرق بين حرفي المد وحرفي اللين لأجروا(يدعوُــ يدعو) مجرى (رمَيَ ـ رَمَى) واعتبروه إعلالا بالقلب وألحقوا الواو والياء المدّيتين بالألف في وصفها بأنها "لا تكون أصلا في الأسماء المتمكنة ولا الأفعال أبدا،إنما تكون بدلا أو زائدا"[41]، ولكنهم خصوا الألف وحدها بهذا الوصف؛ فالحروف يكون كل حرف منها ساكنا ومتحركا،

إلا الألف فإنها لا تكون إلا ساكنة أبدا"[42]، واعتبروا ـ لمقتضى الإعلال بالتسكين ـ الياء والواو المدّيتين مما يقبل التحريك، ويكون أصلا في الأسماء المتمكنة والأفعال.

الخاتمة:

وفي نهاية هذا البحث الذي تناولنا فيه بالوصف والتحليل أصوات العلة في الدرس العربي القديم بين الصوت والرمز، محاولين فيه الكشف عن رؤية القدامى لأصوات العلة من خلال مقولات ثلة من أعلام الدرس العربي القديم، الأمر الذي مكّننا من استخلاص النتائج الآتية:

– الحركة عند القدامى هي: الصوت المهجور الذي يلحق الصامت ليوصل إلى التكلم به، ويقدر زمنها باعتبار وظيفتها بما يكفي لنطق الصامت.

– حددت الحركة عند القدامى من منطلق الوظيفة الصوتية في نظام تشكيل البنية اللغوية.

– الحركات عدت زوائد لعدم ثباتها ثبات الأصول عند الاشتقاق من المادة الواحدة.

– القدامى لم يكن عندهم من عُدة الأجهزة الحديثة ما يسعفهم لإدراك النظام المقطعي،الحاصل عندهم أن حروف المد لا تجتمع مع الساكن، وهذا من خصائص الصوامت لا الحركات.

– وصف القدامى أصوات المد بأنهما حروف ساكنة بعد حركات مجانسة لها،وهي في حقيقتها صوت واحد لا حركة متبوعة بحرف.

– تصور القدامى لوظيفة الحركة في التكلم بالحرف مصدره قوانين نظام المقاطع الصوتية للعربية والتي لا تبدأ بصامت؛ مما أوهم القدامى أن الحركات التي تلي الصوامت تبع لها للنطق بها.

– أدرك القدامى خصوصية أصوات المدّ حيث وجدوا لها سلوكا خاصا يتميز عن سلوك الحركات القصيرة وعن الصوامت، فخصصوا مطلق سكونها بالمدّ واللين والعلة، وأسسوا وصف سلوكها على كونها صوتا ساكنا مغايرا للصوامت الساكنة.

– المقصود من التقدير التعذري هو تجاهل طبيعة أصوات المدّ التى تختلف عن الحروف الصوامت.

– تختلف الواو والياء مدّيتين عنهما لينتين في طبيعة الصوت وطريقة النطق والكمّ الزمن.

التهميشات:

[1]– عبد الصبور شاهين،المنهج الصوتي للبنية العربية، مؤسة الرسالة،بيروت،د.ط، 1980، ص10

2– الطيب البكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، المطبعة العربية، تونس، ط3، 1992. ص23

3– سيبويه،الكتاب،تح عبد السلام محمد هارون، مكتبةالخانجي القاهرة ط3، 1988،ص241–242

4– السيرافي، شرح الكتاب لسيبويه، تح حسن مهدلي، سيد علي،دار الكتب العلمية،بيروت، ط2008،1 ج5، ص131.

5– أبو علي الفارسي،التعليقة على كتاب سيبويه،تح القزوي، مطابع الحسني،الرياض، ط1، 1994،ج4،ص 255.

6– عبد الصبور شاهين،المنهج الصوتي للبنية العربية، مرجع سابق، ص 44.

7– ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط2، 1993،ج1، ص32

[8]– أبو عمرو الداني،المحكم في نقط المصاحف،تح عزة حسن،دار الفكر دمشق،ط1997،2،ص5

[9]– ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح حسن هنداوي،ج1،ص27

[10]– كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، دط، 2000، ص155

[11]– ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح حسن هنداوي،ج1، ص26–27

[12]– أبن سينا،أسباب حدوث الحروف،تح محمد حسان الطيان،مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، دط، دت، ص85

[13]– كمال بشر، دراسات في علم اللغة ، ص98

[14]– كمال بشر علم الأصوات ، ص155

[15]– هذا لكون الواو والياء لينتين أو مديتين سواء عند القدامى

[16]– السيرافي، شرح الكتاب لسيبويه، ج5، ص132

[17]– تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، 1990، ص121

[18]– كمال بشر، دراسات علم اللغة،ص96

[19]– إبراهيم المارغني، النجوم الطوالع، دار الفكر، بيروت، دط، دت، ص157

[20]– كمال بشر، دراسات علم اللغة،ص30

[21]– ابن جني، سر صناعة الإعراب،مصدر سابق ج1، ص23

[22]– ابن جني، سر صناعة الإعراب،مصدر سابق ،ج3، ص121

[23]– المصدر نفسه، ج1، ص26

[24]– أحمد بن محمد البنا،إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، تح شعبان محمد إسماعيل،عالم الكتب، بيروت، ط1، 1987، ج1،ص247

[25]– ابن جني، سر صناعة الإعراب،ج1، ص19

[26]– ينظر الطيب البكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث،المطبعة العربية،تونس،ط3، 1992ص22

[27]– ابن جني، سر صناعة الإعراب، مصدر سابق،ج1، ص27

[28]– ابن جني، الخصائص، تح محمد علي النجارعالم الكتب، بيروت، ط3، 1983ج2، ص294

[29]– المصدر نفسه ج2،ص337

[30]– بن سالم السمارائي،حاشية تشويق الخلان،على شرح الآجزومية، مطبعة عيسى البابي الحلبي،مصر ،دط،دت،ص42

[31]– الشاطبي،المقاصد الشافيةفي شرحالخلاصة الكافية، تح محمد إبراهيم،معهد البحوث العلمية،جامعة أمالقرى،مكة المكرمة، ط2007،1،ج8، ص300–301

[32]– سيبويه، الكتاب،ج4،مصدر سابق،ص156–157

[33]– المصدر نفسه ،ج4،ص437–438

[34]–لأن أصوات المدّ ـ لسبقها بحركة مجانسة ـ تكامل مدّها ولزم، فلا يبطل بإدغام غير لازم للانفصال. ينظر السيرافي: شرح الكتاب،ج5،ص 404–405

[35]–(لنقصان المدّ من أجل مخالفة ما قبل الواو والياء لهما) السيرافي، شرح الكتاب ج5، ص405

[36]– سيبويه ، الكتاب، ج4، ص442

[37]– المصدر نفسه،ج4،ص442.

[38]– ابن جني، الخصائص، ج2،ص341–342

[39]– سيبويه، الكتاب،ج4، ص216

[40]– ابن جني،سر صناعة الإعراب،ج1،ص28

[41]– المصدر نفسه ، ج2،ص 653

[42]– مكي بن أبي طالب القيسي،الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تح أحمد حسن فرحات، دار عمار،عمان الأردن، ط3، 1996، ص94

قائمة المصادر والمراجع:

1- إبراهيم المارغني، النجوم الطوالع، دار الفكر، بيروت، دط، دت.

2- أبو علي الفارسي،التعليقة على كتاب سيبويه،تح القزوي، مطابع الحسني، الرياض، ط1، 1994.

3- أبو عمرو الداني،المحكم في نقط المصاحف،تح عزة حسن،دار الفكر دمشق، ط1997،2،ص5.

4- أحمد بن محمد البنا،إتحاف فضلاء البشر بالقراءات 14، تح محمد إسماعيل،عالم الكتب، بيروت، ط1، 1987.

5- تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، 1990.

6- ابن جني، الخصائص، تح محمد علي النجار عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983.وسر صناعة الإعراب، تح حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط2، 1993، ج1، ص32.

7- ابن سالم السمارائي،حاشية تشويق الخلان،على شرح الآجزومية، مطبعة عيسى البابي الحلبي،مصر ،دط،دت.

8- سيبويه،الكتاب،تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة ط3، 1988.

9- السيرافي، شرح الكتاب لسيبويه، تح حسن مهدلي، سيد علي،دار الكتب العلمية،بيروت، ط1،2008 .

10- ابن سينا،أسباب حدوث الحروف،تح محمد حسان الطيان،مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، دط، دت

11- الشاطبي،المقاصد الشافية،تح محمد إبراهيم،معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة، ط1 2007.

12- الطيب البكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، المطبعة العربية، تونس، ط3، 1992.

13- عبد الصبور شاهين،المنهج الصوتي للبنية العربية، مؤسة الرسالة، بيروت، د.ط، 1980.

14- كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، دط، 2000، ص155.

15- مكي القيسي،الرعاية لتجويد القراءة وتح لفظ التلاوة، تح حسن فرحات، دار عمار،عمان الأردن، ط3، 1996.